# الكَشْكول اللغوي (٤)
## القرطاس والخريطة والكرت والكرتون والخرطوشة والكارتل

أ. د. رفعت هزيم(*)

عرفت الإغريقية اللفظ Khartes بمعنى «ورقة النبات» و«ورقة البرديّ»، ويرجّح الباحثون أن يكون أصله من المصريّة القديمة، وقد عُرِّبَ قبل الإسلام بلفظ «القرطاس»، وصاغت اللاتينية منه charta للدلالة على «ورقة الكتابة»، ثم توسعت اللغات الغربية في دلالته في العصر الحديث فصار يعني «الخريطة» و«الكَرْت» أي البطاقة، ثم اشتقت منه ألفاظ «الكرتون» و«الخرطوشة» و«الكارتل».

والقِرطاس والقُرطاس والقَرطاس والقَرطس والقِرطَس: كلّه الصحيفة الثابتة التي يُكتبُ فيها، وأنشدَ أبو زيد لِمخش العقيلي يصفُ رسومَ الدّار وآثارها كأنها خَطُّ زَبور كُتبَ في قرطاس:

كأنّ، بحيثُ استودعَ الدارَ أهلُها، مَخطَّ زَبورٍ من دواةٍ وقَرْطَسِ»(١)

ويُعجب الطلبةُ اليوم بقصيدة المتنبّي التي يُعاتب فيها سيف الدولة، ومطلعها:

واحرَّ قلباهُ مِمن قلبُهُ شَبِمُ ومَنْ بِجسمي وحالي عندهُ سَقَمُ

(*) عضو مجمع اللغة العربية بدمشق.

(١) اللسان: (قرطس).

وفيها يقول:

أنا الذي نظرَ الأعمى إلى أدبي وأسمعتْ كلماتي مَنْ بهِ صَممُ

ثم يقول:

فالخيلُ والليلُ والبيداءُ تعرفني والسّيفُ والرُّمحُ والقِرطاسُ والقلمُ

وقد سبقه جرير إلى استعمال «القِرطاس» بقوله:

كأنّ ديارَ الحيِّ من قِدَمِ البِلى قراطيسُ رهبانٍ أحالتْ سطورُها

واشتهرت مصر بقراطيسها، ولكن القدماء استعملوا للكتابة مواد أخرى كالكاغد وعسيب النَّخل، ويذكر الثعالبي أن «كاغد سمرقند عطّل قراطيس مصر لأنّ الكواغيد أحسن وأنعمُ».

وقد ورد بصيغتي المفرد والجمع في القرآن الكريم، قال تعالى: ﴿وَلَوْ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ كِتَٰبًا فِى قِرْطَاسٍ ...﴾ [الأنعام: ٧]، وقال: ﴿قُلْ مَنْ أَنزَلَ ٱلْكِتَٰبَ ٱلَّذِى جَآءَ بِهِۦ مُوسَىٰ نُورًا وَهُدًى لِّلنَّاسِ تَجْعَلُونَهُۥ قَرَاطِيسَ تُبْدُونَهَا ...﴾ [الأنعام: ٩١]، كما وردا معًا في بيتٍ نقله الجاحظ: «أنشد رجلٌ يونس النحوي:

اسْتودَعَ العِلمَ قرطاسًا فضيّعَهُ فبئسَ مُسْتودَعَ العلمِ القراطيسُ»[٢]

واكتفى المتقدمون كالجواليقي في «المعرَّب» والخفاجي في «شفاء الغليل» والسيوطي في «المهذّب» بالقول إنّه معرَّب دون بيان أصله، أما المحدثون فقد اتفق فرنكل وجفري على أنه من Khartes في الإغريقية ولكنه دخل العربية بمعنى «ورقة الكتابة» بوساطة qrṭys' الآرامية[٣] أو بوساطة السريانية التي يرد اللفظ فيها بالقاف: qarṭīsâ وبالكاف Karṭīsâ[٤]. ويرى

(٢) الحيوان ١/ ٦١.

(٣) Fraenkel 245.

(٤) Jeffery 235-236، ولم يُشر بروكلمان إلى العربية Brockelm.344b، واكتفى نخلة بأنه من الإغريقية: غرائب اللغة ٢٦٤.

لسلاو أن Kertâs – بالكاف والتاء – في لغة الحبشة الجعزية مأخوذ من العربية[٥]. وقد اجتاز هذا اللفظ في مسيرته – كما رأينا – مرحلتين من التطور الدلالي، فهو يعني في الإغريقية «ورقة النبات» و«ورقة البرديّ»، وأضافت إليه الصيغة اللاتينية charta الدلالة على «ورقة الكتابة».

ومن الطريف أن عرب الجاهلية توسعوا في دلالة هذا اللفظ فجعلوه صفةً للفتاة والناقة، «قال ابن الأعرابي: يقال للناقة إذا كانت فتيّةً شابّة وللجارية البيضاء المديدة القامة: قِرطاس»[٦]، وقد ورد في معلقة طرفة وهو يصف ناقته:

وخدٌّ كقِرطاسِ الشآمي، ومِشْفَرٌ كسِبْتِ اليماني قِدُّهُ لـمْ يُحَرَّدِ

ثم أُضيفت إليه دلالات جديدة في العصر الحديث، فهو الكيس المصنوع من الورق في بعض الأقطار، و ورقة ملفوفة على هيئة القمع يوضع فيها الترمس أو البوشار في مصر ، وصاغوا منه «القرطاسيّة» لأدوات الكتابة ولوازمها في بلاد الشام.

وتذكر معاجم اللغة للجذر «خ ر ط» أفعالًا وأسماء بدلالات شتى، ومنها «خرطَ الشّجرةَ خَرْطًا: انتزعَ الورقَ واللِّحاءَ عنها اجتذابًا بِكفِّهِ،... وفي حديث صلاة الخوف: فاخترطَ سيفهُ أيْ سلَّهُ من غمدِهِ،... و الخريطة: وعاءٌ مثلُ الكِيس تكون من الخِرَقِ والأدم تُشرجُ على ما فيها»، وضرب ابن منظور مثلًا لاستعمال الخريطة بقوله «ومنه خرائطُ كُتب السلطان»[٧]، ولو نظر المرء في تاريخ الطبري أو «الأغاني» للأصفهاني أو «أنساب الأشراف»

(٥) Leslau 294b.

(٦) اللسان: (قرطس).

(٧) اللسان: (قرطس).

للبلاذري أو سواها لوجد أمثلةً كثيرة لهذا الاستعمال المهجور اليوم كقولهم: «قال هارون الرشيد للفضل بن الربيع: ابعثْ خريطةً فيها نعيُ فلان»، وقولهم: «وردتْ خريطةٌ على السلطان بموافاة فلانٍ في مركبٍ من مراكب البحر»، وقولهم: «جاءت خريطة البريد وفيها كتابُ فلان». أما الأوجه الأخرى لاستعمالها فهي لا تقل غرابة، ومنها أن تُملأ الخريطة دراهم أو جواهر، وقد رووا أنّ أبا دلامة أخرجَ خريطةً قد كان خاطها من الليل وقال للخليفة المنصور: هل تملأُ هذه دراهم؟ وأنّ أحد القُرّاء والمُحدِّثين واسمه «شهر» كان على خزائن يزيد بن المهلّب (ت١٠٢هـ) في خراسان فاستولى على خريطةٍ فيها مئة دينار، فقال فيه أحدهم:

لقد باع شهرٌ دينهُ بخريطةٍ فَمَنْ يأمن القُرّاءَ بعدكَ يا شهرُ

ومنها أنّ يوسف بن عمر (ت١٢٧هـ)- أمير العراق في عهد هشام بن عبد الملك - طلب السكّر في إحدى موائده من المسؤولين عن الطعام فلم يجدهُ فأخذوا بعد ذلك يحملونه مدقوقًا معهم في خرائط إلى الموائد. أما أطرف الأخبار في استعمال الخريطة فهو في حكاية أبي نصر الفارابي في مجلس سيف الدولة، فقد «أخرجَ من وسطه خريطةً ففتحها وأخرج منها عيدانًا وركّبها ثم لعبَ بها فضحكَ كلُّ مَن في المجلس، ثمّ فكّها وركّبها تركيبًا آخر فبكى كلُّ مَن في المجلس، ثمّ فكّها وغيّر تركيبها وحرّكها فنام كلُّ مَن في المجلس حتّى البوّاب، فتركهم نيامًا وخرج».

ومن العبث البحث عن لفظ «الخريطة» بالمعنى الشائع اليوم وهو «المُصوَّر الجغرافي» في كتب التراث كلها، مما يدلّ على أنه من الدخيل في العصر الحديث، ويبدو أن رفاعة الطهطاوي (ت١٨٧٣) هو الذي أدخله العربية، إذ أورده بعد عودته من فرنسا بصيغتين في أحد كتبه، قال:

«ويتعلمون علم الجغرافيا على خرطات،... ونرسم خارطات جغرافيّة»[٨]. ونُشر في هذا الوقت معجم «محيط المحيط» لبطرس البستاني (ت١٨٨٣) فكان أول معجمٍ ذكره وبيّن أصله ومعناه، قال: «الخارطة مؤنث الخارط، وعند أهل الجغرافية: رقعةٌ مرسومٌ عليها صورة الأرض أو قسمٌ منها، معرَّب كارتا باللاتينية ومعناها ورقة»[٩]، ثم ذكر العنيسي أن مصدر اللفظ هو الإيطالية[١٠]، وقال غيره إنه من «خريطة» في التركية[١١]. وليس ثمة تعارض بين المذهبين لأن اللفظ اللاتيني يعني - كما رأينا- «ورق البردي» و«ورق الكتابة» فحسب، أما دلالته الجديدة أي «المُصوَّر الجغرافي» فقد أضافته الفرنسية carte والإنكليزية chart والألمانية Karte والإيطالية Carta geografica التي دخلت التركية - فيما يظهر- في العهد العثماني ومنها إلى العربية.

ويُضافُ إلى «القرطاس» و«الخريطة» دلالات أخرى لـ carte في الفرنسية في القرنين الخامس عشر والسادس عشر ومنها إلى Karte في الألمانية و card في الإنكليزية المصوغة من charta اللاتيني، فمنها ما عرّبته العامية بصيغة «كَرْت/ كارت» ثم حلّ لفظ «بطاقة» محلّه في الفصحى، فيُقال: بطاقةُ هويةٍ أو دخولٍ أو دعوةٍ أو زيارةٍ أو تهنئةٍ... ID,admition, invitation,visiting,greeting /card، وظهر اللفظ carton في القرن السادس عشر في الفرنسية ومنها إلى الإنكليزية و Karton في الألمانية الذي يُستعمل في العربية كما هو أيْ «كرتون» أو مترجمًا إلى «ورق مُقوّى»، ثم cartoon

(٨) تخليص الإبريز ١٧٣، ٢٧٠.

(٩) محيط المحيط.

(١٠) العنيسي ٢٣.

(١١) عبد الرحيم ٩٩.

في الإيطالية والفرنسية والإنكليزية الذي ترجمته العربية إلى «أفلام الكرتون» و«الرسوم المتحركة»، وقد ظهر أول جهاز مكتمل لعرضها عام ١٨٧٧ وهو من اختراع الفرنسي إميل رينو.

ووُلِدَ اللفظ Cartuccia في الإيطالية في القرن السابع عشر، وانتقل بوساطة التركية بصيغة «خرطوشة» إلى العربية، والجمع: الخرطوش[١٢]، وبصيغة Cartouche إلى الفرنسية وKartusche إلى الألمانية وبصيغتي cartouche + cartridge إلى الإنكليزية، وله دلالتان: الرّصاصة المستعملة في البندقية لأنّ البارود كان يُلفّ في الورق، و: الشكل الإهليلجي المزخرف الذي يتضمن أسماء الآلهة والفراعنة في النقوش المصرية القديمة، وأضافت الفرنسية إليهما دلالة ثالثة تستعمل في مصر وهي: الرّزمة التي تشتمل على ١٠ علب من السجائر أي «الكروز» في سورية التي أضافت إليه دلالةً رابعة وهي أُنبوبة الحبر داخل قلم الحبر[١٣].

وربما كان أحدث الألفاظ cartello في الإيطالية وهو صيغة التصغير من carta اللاتيني الذي انتقل إلى الفرنسية والإنكليزية: cartel وإلى الألمانية: Kartell وإلى العربية «الكارتل» وهو يعني اليوم اتفاق الشركات الكبرى لغرض الاحتكار.

ويتبين من ذلك أن الألفاظ السّتة: القرطاس والخريطة - بمعنى «المُصوَّر الجغرافي» - والكرت والكرتون والخرطوشة والكارتل أخواتٌ من أبٍ واحد، دخلت أولاهن - أي القرطاس - العربية قبل الإسلام وتأخّر دخول الأُخريات إلى العصر الحديث!

(١٢) الكواكبي ٧٤٨.

(١٣) أيْ ما يقابل ink cartridge.

# المصادر والمراجع

**أ- الكتب العربية:**

- تخليص الإبريز في تلخيص باريز: رفاعة الطهطاوي، دمشق ٢٠٠٢.
- -تفسير الألفاظ الدخيلة في اللغة العربيّة. طوبيا العنيسي، ط٢، ١٩٣٢، القاهرة ١٩٦٤.
- الحيوان: الجاحظ، تحقيق: عبد السلام هارون، القاهرة ١٩٦١.
- غرائب اللغة العربية: رفائيل نخلة، بيروت ط٣ ١٩٨٤.
- الكلمات الدّخيلة على العربيّة الأصيلة: صلاح الدين الكواكبي، مجلة مجمع دمشق: المجلدات ٤٨ (١٩٧٣) و٥٠ (١٩٧٥) و٥١ (١٩٧٦).
- لسان العرب: ابن منظور، بيروت د.ت.
- محيط المحيط: بطرس البستاني، بيروت ١٨٧٠.
- معجم الدخيل في العربيّة الحديثة ولهجاتها: ف.عبد الرحيم، دمشق ٢٠١١.
- المفردات في غريب القرآن: الراغب الأصفهاني، تحقيق محمد سيد كيلاني، القاهرة د.ت

**ب- باللغات الأجنبية:**

- Brockelmann,k.: Lexicon Syriacum.1928, Neud.Hildesheim 1966.
- Fraenkel , S.: Die aramäischen Fremdwörter im Arabischen. Leiden 1886 , Neud. 1982.
- Jeffery , A.: The foreign vocabulary of the Qur'an. Baroda 1938.
- -Leslau , W.: Comparative Dictionary of Gecez. Wiesbaden 1987.

❋ ❋ ❋